مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

وحدة الفكر السياسي المعاصر

مسارات

نشرة بتنهرية تصدر عن وحدة الفكر السياسي المعاصر
تُعنى بقراءة وتحليل أهم الأحداث السياسية
في العالم الإسلامي

الإخوان المسلمون
الأيديولوجيا في مواجهة الدولة الوطنية بمصر

مفهوم الحاكمية

الجاهلية.. معاداة المجتمعات الإسلامية

الأممية والحزبية في مواجهة المواطنة

عدد سبتمبر 2013م

يصف بعض الباحثين ظهور حركة الإخوان المسلمين وما تولد عنها من حركات أصولية بأنه أكبر شرخ حدث داخل أهل السنة والجماعة.فهل ما قدمته الحركة من أفكار وأيديولوجيات كانت داعية إلى الفوضوية (Anarchism)؟ وهل هي أفكار تهدف إلى القضاء على البنية التقليدية للمجتمعات الإسلامية وتعجز عن تقديم بناء مجتمع إسلامي بديل؟

يتم توجيه أصابع الاتهام إلى الجماعة بأنها وبناتها سعت إلى إسقاط وإنهاك كثير من الدول الإسلامية تحت دعاوى (الحاكمية)، كما مزقت المجتمع المسلم باتهامه بـ(الجاهلية)، ورسّخت لمفهوم الولاء الحزبي في مقابل الانتماء الوطني وذلك تحت دعوى (الأممية). في هذا العدد من مسارات سيتم إثارة التساؤلات حول هذه الأسس الأيديولوجية للفكر الإخواني (الحاكمية، والجاهلية، والأممية) وهل أدت إلى نشوء تنظيم فوضوي يمتهن الهدم ويعجز عن البناء؟ كما أن دراسة متعمقة فكرياً واجتماعياً لهذه المصطلحات الثلاث أصبحت حاجة ضرورية، وهو ما سيتم تسليط الضوء عليه في دراسة قادمة ومطولة إن شاء الله

مفهوم الحاكمية

لعل أول نقاط الافتراق بين رؤية الإخوان المسلمين عن الإطار النظري العام للنظرية السنية في الحكم هو رؤيتها لطبيعة الدولة وأصول الحكم ، وقد انحاز حسن البنا إلى خيار تلفيقي بين أنصار الخلافة والراغبين في عودتها وبين أنصار الدولة الوطنية أو حتى أولئك الإصلاحيين وعلى رأسهم الشيخ على عبدالرازق الذين انحازوا لخيار الدولة المدنية، الذين ذكروا أن الإسلام لم يتحدث عن الحكم كتشريعات وتفاصيل وإنما كمبادئ وقيم. منذ البداية وحسن البنا ينتقل بخيار الحكم من إطار الفقهيات إلى العقائد والأصول وهو ما تطور لاحقاً بفضل إفادة سيد قطب من المودودي إلى مفهوم "الحاكمية".

تقوم فكرة الحاكمية في صورتها القطبية والمودودية على أن جميع الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية هي أنظمة كافرة وغير شرعية، لأنها لا تحكم بالشريعة الإسلامية، وهذا التعميم القاصر يعكس جهلاً بالتاريخ والتشريع الإسلاميين كما يعكس تجاهلاً لواقع المجتمعات الإسلامية. وفي التاريخ الإسلامي المبكر كانت دعوى (الحاكمية) هي الشعار الذي رفعه الخوارج ضد الخلافة الراشدة. وعندما قام الخوارج بالهتاف في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه (لا حكم إلا لله)؛ أجابهم على بن أبي طالب –رضي الله عنه– بأنها (كلمة حق أُريد بها باطل). وقد أعادت هذه الجماعات المتطرفة اليوم إحياء هذا المذهب، رافعين الشعار نفسه الذي رفعه الخوارج.

وهذا العداء للدولة الإسلامية وتكفيرها، يفسر عمليات العنف التي قام بها بعض أعضاء حركة الإخوان المسلمين وبناتها من الجماعات الإسلامية ضد الدول الإسلامية ومؤسساتها تحت شعار الحاكمية.

الإخوان والعنف

تعود بدايات تشكل التنظيم الخاص للجماعة بين أعوام (١٩٤٠-١٩٤٢م)، فقد تضخمت جماعة الإخوان المسلمين إبان حكومة الوفد بشكل هائل، وفي سعي من الجماعة لاستيعاب التضخم التنظيمي، قام البنا باستحداث (نظام الأسَر) في هيكليتها التنظيمية، وهو ترتيب عنقودي مكون من الخلايا التي لا يزيد عدد أعضاء كل منها على خمسة أعضاء، ويبدو هنا التأثير التنظيمي للأحزاب والقوى الماركسية والشيوعية التي سبقت الإخوان في مسألتي التربية الحزبية والكوادر الهيكلية التي تنتظمها الأسر .

خلال هذه الفترة نشأ ما عرف بـ(التنظيم الخاص) أو ما سيعرف خارج الجماعة بـ(الجهاز السري) ولكن لا يوجد تاريخ دقيق لبدء تشكيل هذا النظام، ومما يشير إلى عدم الدقة في تحديد متى أنشئ الجهاز الخاص أن أعضاء الإخوان أنفسهم حددوا تاريخ إنشاء هذا الجهاز ما بين ١٩٣٠م و١٩٤٧م، وهو ما يدل على غموضه وسريته التامة.

تألف التنظيم الخاص من ثلاث شعب أساسية هي: التشكيل المدني، وتشكيل الجيش، وتشكيل البوليس، وألحقت بالنظام تشكيلات تخصصية مثل: جهاز التسليح، وجهاز الأخبار، وقد عمل الجهاز الأخير كجهاز استخباري للجماعة.

التنظيم الخاص

إنشاء (التنظيم الخاص) يُعتَبر ترجمة عملية لفكرة الدولة داخل الدولة التي تبناها حسن البنا منذ البداية، ويمكن عزو هذه الفكرة إلى رسالة هامة بعث بها البنا إلى المؤتمر الخامس ١٩٣٨م حين سئل : هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في

تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟.. أجاب بالقول: "الإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء ولابد أن يعملوا في قوة".
لكن عندما حُلَّت الجماعة سنة ١٩٤٨م بناءً على حوادث إرهابية وعنفية اتهمت بها، رد البنا: "من خدع الحرب أن يضلل المسلم عدو الله بالكلام حتي يتمكن منه فيقتله". واللافت أن البنا أنكر انتساب المتهمين لجماعة الإخوان وذلك رداً على مذكرة توضيحية صدرت بتاريخ ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦م بسبب حوادث متكررة ألقيت فيها القنابل على أماكن عدة بالقاهرة وكان مرتكبوها منتسبين إلى جماعة الإخوان، فالبنا أكد أن المتهم ليس من الجماعة، وهو ما كذبه فيه أحد قادة الجماعة وقادة التنظيم الخاص بعد أربعين عاماً في كتابه المهم: (حقيقة التنظيم الخاص) فمحمود الصباغ أكد أن المتهمين كانوا من الجماعة.

حادثة الجبل

كما أن حادثة الجبل وهو مكان في جبل المقطم اعتاد أفراد الجماعة على التدرب فيه على استعمال السلاح، وقد نصت مذكرة حل الجماعة أنه في ١٩ يناير سنة ١٩٤٨م جرى ضبط خمسة عشر شخصاً من جماعة الإخوان المسلمين بمنطقة جبل المقطم كانوا يتدربون على استخدام الأسلحة النارية والقنابل وكانوا يحرزون كميات كبيرة من هذه الأنواع وغيرها من الأسلحة، إلا أن حسن البنا رفض هذا الاتهام مبرراً ما فعلوه بأنه ضرب من الاستعداد للتطوع لإنقاذ فلسطين حينما أبطأت الحكومة في إعداد المتطوعين وحشد الجماهير .

اغتيال النقراشي باشا

ربما كانت أبرز حادثة عنف التصقت بالجماعة وعرفت بها هو قرارها باغتيال النقراشي باشا اعتراضاً على قرار حل الجماعة، حيث قام التنظيم الخاص بوضع خطة لاغتيال رئيس الحكومة – آنذاك – محمود فهمي النقراشي باشا، وكان يشغل وقتها بجانب رئاسته للحكومة منصب وزير الداخلية، ففي يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م تنكر الإخواني عبدالمجيد أحمد حسن في زي ضابط بوليس، واقترب من رئيس الوزراء ووزير الداخلية أثناء دخوله لمبنى الوزارة مطلقاً عليه ثلاث رصاصات أدت إلى وفاته على الفور، ولم تمر ساعات قليلة إلا وكان مرشد الجماعة حسن البنا قد خط بياناً بعنوان (ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين) زعم مقربون منه أن البيان كتب قبل يومين من الحادث، قال فيه: «لقد وقعت أحداث نسبت إلى بعض من دخلوا هذه الجماعة دون أن يتشربوا روحها، وتلا أمر حل الإخوان ذلك الحادث المروع حادث اغتيال دولة رئيس الحكومة المصرية محمود فهمي النقراشي باشا، الذي أسفت البلاد لوفاته وخسرت بفقده علماً من أعلام نهضتها وقائداً من قادة حركتها ومثلاً طيباً للنزاهة والوطنية والعفة من أفضل أبنائها، ولسنا أقل من غيرنا أسفاً من أجله وتقديراً لجهاده وخلقه».

الغريب أن المتهم بعد أن أنكر صلته بالإخوان وأصر على أنه قام بتنفيذ العملية من تلقاء نفسه، عاد واعترف بدور الجماعة في العملية فور سماعه لبيان المرشد العام، وبعيداً عن اعتراف الشاب بمسؤولية الإخوان، الذي قد يدافع البعض بأنه جاء تحت وقع التعذيب أو التهديد، يعترف محمود صباغ بعد أربعين عاماً على الحادث في كتابه السابق الاشارة إليه وفي معرض حديثه عن مقتل النقراشي باشا بأن العملية جاءت من باب حماية الدعوة، في إشارة إلى قرار النقراشي بحل الجماعة .

ولم يتوقف الإخوان بعد اغتيال النقراشي ورأوا أن إبراهيم باشا عبدالهادي امتداد للنقراشي ومن ثم قرر الإخوان الفدائيون- هكذا يصفهم الصباغ -اغتيال إبراهيم باشا، وبالفعل كمنوا له في يوم ٥ مايو ١٩٤٩م في الطريق إلى رئاسة مجلس الوزراء واطلقوا عليه وابلاً من الطلقات أصابت بعض المارة وكذلك الموكب الذي اعتقدوا أنه خاص بإبراهيم باشا، ولكنه كان موكب

حامد جودة رئيس مجلس النواب الذي لم يصب بأي أذى، وبعد القبض على منفذي العملية بدأت محاكمتهم التي استمرت حتى قيام ثورة يوليو واعتبر بعدها المتهمون أبطال تحرير وصدر عنهم جميعاً عفو شامل.

حادثة المنشية عام 1954م

وصل الإخوان مع جمال عبد الناصر إلى طريق مسدود، وكانوا قد أعادواترتيب التنظيم الخاص، وفي اللحظة الحاسمة قرروا التخلص من عبدالناصر، ففي يوم ٢٦ فبراير ١٩٥٤م وبمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء وقف الرئيس عبدالناصر يلقي خطاباً بميدان المنشية بالإسكندرية، وبينما هو في منتصف خطابه أطلق محمود عبداللطيف أحد كوادر التنظيم الخاص لجماعة الإخوان ثماني طلقات نارية من مسدس بعيد المدى باتجاه الرئيس ليصاب شخصان وينجو عبدالناصر، وحتى هذه اللحظة يصر الإخوان على أن هذا الحادث لا يخرج عن كونه تمثيلية قام بها رجال الثورة للتخلص من الجماعة، ولكن المتهمين في المحكمة العلنية (محكمة الشعب) التي كانت تذاع وقائعها على الهواء مباشرة عبر الإذاعة المصرية قدموا اعترافات تفصيلية حول دور كل منهم ومسؤولية الجماعة عن العملية (تم جمع هذه المحاكمات ونشرها بعد ذلك في جزءين بعنوان محكمة الشعب).

الفنية العسكرية

بعد وصول السادات إلى الحكم، قام بإطلاق سراح قادة الإخوان من السجون وأبرم معهم اتفاقاً يقضي بعدم العمل في السياسة فاتحاً صفحة جديدة مع الجماعة، وسرعان ما سعى كوادرها إلى ضم عدد من الشباب الذين اعتنقوا فكر سيد قطب التكفيري ليستخدموهم في محاولة جديدة لقلب نظام حكم الرئيس الراحل وهو ما عرف في حينها بقضية (الفنية العسكرية)، كشف طلال الأنصاري أحد قادة التنظيم الذي حكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد في مذكراته المعنونة (صفحات مجهولة من تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة – من النكسة إلى المشنقة) أنهم كانوا قد شكلوا تنظيماً سرياً بمدينة الإسكندرية عام ١٩٦٨م، وظل هذا التنظيم قائماً إلى أن خرج الإخوان من السجون، حيث قادته الصدفة عن طريق أحد كوادر جماعة الإخوان المسلمين ويدعى الشيخ علي إلى التعرف على زينب الغزالي التي قدمته بدورها إلى الإخواني الفلسطيني صالح سرية، حيث فاتحه الأخير في الانضمام هو وتنظيمه إلى جماعة الإخوان ليكونوا نواة الجناح العسكري الجديد للجماعة، ويضيف الأنصاري أنه بعد موافقته على هذا الطرح رتبت زينب الغزالي للقاء يجمعه بالمرشد العام آنذاك -أواخر عام ١٩٧٢م- المستشار حسن الهضيبي، وذلك بمنزله بحي منيل الروضة. وفي عام ١٩٧٤م قامت المجموعة بقيادة صالح سرية بمحاولة اغتيال السادات والقيام بإنقلاب عسكري، لكن المحاولة فشلت وتم القبض على جميع المشاركين فيها.

من البنا إلى قطب .. تأصيل العنف

يمكن القول إن الإخوان بعد سيد قطب قد تحولوا إلى مربع جديد حيث التأصيل للعنف في سياق رؤية كليّة شمولية للذات والعالم والآخر بعد أن كان تأصيل العنف في أدبيات حسن البنا ومن بعده هو تأصيل "حربي" يستخدم بشكل براغماتي عند الحاجة

أكثر من كونه جزءاً ثورياً أصيلاً .

انضم سيد قطب للإخوان عام ١٩٥١م وقد تغزل فيهم بإهداء كتاب(العدالة الاجتماعية في الإسلام) للجماعة، وحين عاد من أمريكا استقبله وفد من شباب الجماعة في ميناء الإسكندرية ، واتصل بالهضيبي المرشد العام وعرض عليه أن يقبل انضمامه للجماعة، وتسلم رئاسة تحرير جريدة الإخوان، وبعد حادثة المنشية ١٩٥٤م بدأت حملة اعتقالات ضد الإخوان وأعدم ٦ من القادة منهم عبدالقادر عودة .

ولاحقاً، أُوكل لسيدقطب قيادة تنظيم ١٩٦٢م الذي وصفه سيد قطب في بعض كتبه بـ «جيل المعالم» وقد أشرف على تربيته من داخل السجن، ووصفهم بطليعة البعث الإسلامي وقد أعدمت رموز هذا التنظيم سنة ١٩٦٥م، ومن أفكار هذا التنظيم ظهرت جماعات عنف كثيرة أهمها جماعة التكفير والهجرة.

بعد ذلك حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٦٦م، وقد توالت الانشقاقات داخل هذا التنظيم من قبل جماعات مختلفة بعد وفاته بسبب كتاب (معالم على الطريق) الذي يعتبر إنجيلاً لجماعات العنف المسلح على اختلاف تنويعاتها

القاعدة إحدى بنات حركة الإخوان

في شريطه عن ذكرياته مع أسامة ابن لادن المعروف باسم (أيام مع الإمام)، يذكر أيمن الظواهري أن ابن لادن كان عضواً في فرع تنظيم جماعة الإخوان المسلمين في الجزيرة العربية، قبل أن يغادر التنظيم لاحقاً. كما كان سيد قطب مؤثراً في التكوين الفكري لأيمن الظواهري الذي بحسب اعترافه على لسان أبي قتادة الفلسطيني: "عاش شبابه كله منفعلاً بكتابات سيد قطب".

وعلى مستوى تنظيم القاعدة يمكن العودة إلى حديث القيادي في تنظيم الجهاد المصري نبيل نعيم الذي سبق وأن قاتل في صفوف القادة الأفغان وزامل ابن لادن والظواهري وعزام وآخرين، حيث يؤكد نعيم أن الإخوان كانوا مؤثرين في الواقع الأفغاني وفي تأسيس القاعدة وذلك عبر شخصية إخوانية كانت حلقة الوصل بين الجماعة والقاعدة آنذاك ويطلق عليه "عز الدين" هذا الاسم الحركي القادم من أوروبا لتمويل أعمال عنف داخل العواصم الإسلامية من القاهرة إلى الرياض .

علاقة معقدة ومستمرة

ظلت هذه العلاقة التبادلية بين القاعدة والإخوان مستمرة حتى بلغت ذروتها مع وصول الجماعة للحكم ، وكان قيام الرئيس الإخوانى المعزول، محمد مرسي، بالإفراج عن قيادات جهادية إرهابية، مستخدماً حقه كرئيس للجمهورية فى العفو عمن شاء من السجناء، وهو ما أعاد التساؤلات عن العلاقة النفعية المتبادلة بين الطرفين على الأقل فيما يخص المواقف العامة ، ويؤكد ذلك حديث الإخوانى محمد البلتاجى الشهير عن علاقة العنف في سيناء بعزل مرسي حيث قال: "إذا عاد مرسى إلى السلطة توقفت العمليات المسلحة ضد الجيش فى سيناء فوراً".

وهي العبارة التي تفوه بها وسط أنصار الإخوان فى رابعة ومعهم مجموعات من (السلفية الجهادية) التي حاولت بعد هذا التصريح دون أن تتكلل محاولاتها بالنجاح اقتحام مبنى وزارة الدفاع المصرية شهر أبريل ٢٠١٣م.

الجاهلية.. معاداة المجتمعات الإسلامية

لم يقف عداء بعض المنتسبين إلى الإخوان المسلمين مثل سيد قطب على الأنظمة والحكومات الإسلامية، بل تعداها إلى المجتمعات الإسلامية نفسها، فلم يتورع هؤلاء المنظرون عن نزع وصف الإسلام عن المجتمعات الإسلامية ووصفها بأنها جاهلية ودعوا إلى العزلة عن هذا المجتمع، وهي عزلة شعورية أكثر من كونها جسدية. وقد تحدث سيد قطب عن ضرورة بناء الطليعة المؤمنة التي ستكون نواة للمجتمع الإسلامي على صورته الأولى، ونقاؤه لا يتأتى إلا من عزلته عن الجاهلية السائدة، ومن ثَم فإن الحديث عن الاجتهاد الفقهي هو -بمنظوره- عبث قبل إنشاء المجتمع الإسلامي؛ فالاجتهاد يكون لمجتمع إسلامي لا جاهلي.

فمن باب الحاكمية والجاهلية دخلت إلى الفكر الإسلامي جميع أفكار المقاطعة والتكفير والاستحلال واستباحة الدماء والأموال وكانت محفزة لجماعات العنف المنشقة عن الإخوان بدءاً من التكفير والهجرة وحزب التحرير وجماعة الجهاد والجماعة الإسلامية وليس انتهاء بالقاعدة.

لذا فهناك سؤال مشروع وهو هل يمكن وصف حركة الإخوان بأنها جماعة معارضة سياسية فقط، أم أنها جماعة فوضوية معادية لكل البنى التقليدية الإسلامية سواءً كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية؟

وتأييداً لهذا الاتهام يلفت بعض الباحثين النظر إلى أن حكومة الإخوان المسلمين التي حكمت السودان بقيادة حسن الترابي وعمر البشير كانت قد جعلت من السودان مأوى وملجأ لشذاذ الآفاق من الإرهابيين ومرتزقة الحروب، من أمثال أسامة ابن لادن، وكارلوس، وجماعة أبي نضال، والجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد المصريتين وغيرها من الأفراد والجماعات.

الأممية والحزبية في مواجهة المواطنة

لقد أساءت حركة الإخوان المسلمين استخدام مفهوم الأمة، ووظفته توظيفاً سياسياً سلبه معناه الروحي وجعل مصطلح الأمة متعارضاً مع مصطلح المواطنة. ولذا نجد في أدبياتهم أن «جنسية المسلم هي دينه». أما الوطن فكما يحدده حسن البنا يعود إلى يوتوبيا كلاسيكية تشمل كل أرض فيها مسلم، حيث يقول البنا: "حين أقول الوطن لا أقصد مصر وحدها، بل أعني مصر وبلاد العرب ودول الإسلام ومواطنه الحبيبة. وطننا نحن المسلمين، كل شبر أرض فيه مسلم يقول: لا إله إلا الله".

لقد خسر الإخوان المسلمون الوطن ولم يكسبوا الأمة، فبسبب فكرتهم عن جاهلية المجتمع لم يتحالفوا مع المجتمعات الإسلامية الأخرى، ولكن حلفهم كان حزبياً مع أمثالهم من الذين يحملون الفكر ذاته. لذا كان تنظيمهم خاضعاً لسلطة المرشد لا يؤمن بالحدود السياسية بحيث أصبحت الحزبية والانتماء إلى الفكر الإخواني الحزبي هو البديل عن الوطن وعن الأمة عند الإخوان المسلمين.

ولعل المثل الأبرز في هذا هو تأييد أغلب قيادات الإخوان المسلمين لصدام حسين في احتلاله لدولة الكويت. وبقي السؤال الذي ما زال مطروحاً منذ ذلك الوقت من غير إجابة. لماذا أيد الإخوان نظام صدام حسين البعثي المخالف لكل ما يدعو إليه الإخوان- في احتلاله لبلد مسلم وتهديده للملكة العربية السعودية -مهد الإسلام- التي احتضنت الإخوان عندما كانوا يتعرضون للاضطهاد من بعض الأنظمة العربية وعلى رأسها نظام صدام حسين. ومما تجدر الإشارة إليه هنا تصريح سمو الأمير نايف بن عبد العزيز

–رحمه الله– في حواره مع صحيفة السياسة الكويتية في ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢م، حيث قال: «عندما حصل غزو العراق للكويت، جاءنا علماء كثيرون على رأسهم عبد الرحمن خليفة، ومعه الغنوشي والترابي والزنداني وأربكان وآخرون، وأول ما وصلوا اجتمعوا بالملك وبولي العهد وقلنا لهم: هل تقبلون بغزو دولة لدولة؟، وهل الكويت تهدد العراق؟، قالوا والله نحن أتينا فقط لنسمع، ونأخذ الآراء، بعد ذلك وصلوا إلى العراق، ونفاجأ بهم يصدرون بياناً يؤيد الغزو العراقي للكويت».

وهذا ما يفسر السقوط السريع لحكومة الإخوان في مصر، فقد عجزوا عن حماية الوطن، واستعاضوا عن ذلك بالسعي إلى «أخونة» الدولة ومؤسساتها. لقد سعوا مباشرة وبفكر فوضوي إلى تفكيك أو إضعاف جميع مؤسسات الدولة السيادية، سواءً كان الجيش أو الأزهر أو المؤسسات القضائية. كما حاولوا تسليم المؤسسات التعليمية والدستورية إلى موالين للفكر الإخواني لإكمال مشروع الهيمنة على الدولة. لقد كانت ممارسة الإخوان السياسية خلال هذه السنة تذكيراً بممارسة الأحزاب الشمولية.

علاقة معقدة ومستمرة

لقد خسر الإخوان سياسياً بفوزهم الهش في الانتخابات، حيث أنه من المؤكد تراجع شعبيتهم لدى الشارع المصري الذي ملَّ من اللعبة السياسية كلها، وأصبح لا يفكر إلا بمشكلاته اليومية ومتطلباته المعيشية التي لا تبدو على سلم اهتمامات المتصارعين سياسياً، وبالتالي مهما حاولت أي سلطة تهميش وتحييد القوى السياسية والاجتماعية في مصر، إلا أنها تعجز عن تحييد الأغلبية الصامتة غير المعنية بصراع الديكة في المشهد السياسي.

لماذا خسر الإخوان ؟

سؤال الأسئلة كيف احتمل المصريون نظام مبارك ٣٠ عاماً، ولم يستطيعوا تحمل نظام الإخوان ومرسي أكثر من سنة واحدة!

على الرغم من أن مثل هذا السؤال التبسيطي هو أول ما يقفز إلى ذهن المتأملين للمشهد المصري فإن الإجابة عنه معقدة ومركبة نظراً لطبيعة الاختلاف بين النظامين من حيث التكييف السياسي وطريقة الوصول والأهم هو الأداء السياسي.

فمعضلة جماعة الإخوان المسلمين التي ساهمت في دخولها مرحلة الموت السريري هي عدم استيعاب الجماعة للواقع الذي يعني حزمة هائلة من التنوع والاختلاف والميول لا يمكن أن تستوعبها بوتقة (الجماعة) على حساب مفهوم المواطنة وهو الإطار الفكري الوحيد الذي لا يمكن القفز عليه في أحلك الظروف.

الجماعة لم تفرق بين السلطة والدولة وبين الجماعة والمجتمع فظنت أن الإمساك بمقاليد السلطة يعني بالضرورة ضمان تسيير الدولة والسيطرة على مكونات المجتمع المصري المتنوعة فوقعت في أزمة سياسية خطيرة منذ الأيام الأولى، وما حدث في ٣٠ يونيو لم يكن إلا (نقطة غليان) للشارع المصري أخذت وقتها منذ بدايات تولي الجماعة وفرضها لفكر شمولي إقصائي كان محل استنكار الحلفاء السلفيين قبل باقي القوى الوطنية.

تقديس للذات

من الأمور المهمة واللافتة للنظر، هو حالة تقديس الذات التي ظهرت بين المعتصمين الإخوان وأنصارهم في ميدان رابعة العدوية، وهو إذا ما أردنا تفكيك مضمونه بقراءة الخطاب الذي يقف خلفه فهو مزيج من التقديس المبالغ للذات، واعتقاد أن لحظة تستحق

كرامة ما، إضافة إلى التشبه بحال الصحابة في العهد المكي، وهو ما يعني أن للجماعة خطابين كعادة كل أحزاب الإسلام السياسي بشقيها السني والشيعي: خطاب علني يتفنن القادة والرموز في التشدق به أمام الغرب كفئة ديمقراطية تواجه صلف العسكر والفلول والدولة العميقة... إلخ. مما بات يعني بعبارة أخرى تواجه كل الشعب المصري الذي لا يدين بفكرة الإسلام السياسي وبات لا يتعاطف معه، وهو الأمر الذي أربك تصرفات الجماعة وأوقعها في أخطاء كارثية وأدى إلى ازدياد حجم أعدائها ليس في مصر فحسب، بل في العالم العربي، وهو الأمر الذي يهدد بزوال جماعة الإخوان للأبد بطريقة (التدمير الذاتي) وليس بممانعة أي طرف آخر.

والخطاب الثاني: خطاب مضمر وهو الأهم لمن يريد فهم أبعاد المشهد؛ لأنه يمثل قناعات القواعد الشعبية على الأرض والكوادر الإخوانية التي لا تفقه في السياسة سوى أنها مع ما يقوله المرشد والقيادات بالمطلق. هذا الخطاب يحصر الجماعة في فئة متطرفة راديكالية ستعود للنهج القطبي الانعزالي الذي يمكن أن يرفع السلاح، لكن ليس في سبيل الحاكمية وإنما (الصندوقراطية) التي كان سيد قطب يقاتل ضدها.

انتحار الجماعة

الجماعة تنتحر والانشقاقات تتوالى، وما زالت حالة الإنكار تتسيد خطابي الجماعة المضمر والمعلن، أما قيادات الجماعة فهي تستقوي بأميركا وتبحث عن قوارب نجاة سياسية بين الأتباع والكوادر تحول الصراع إلى مقدمات حرب أهلية دينية بوقود ودعم مالي ومعنوي من أنصارها في الخارج الذين أيضا يبكون تجربة الجماعة الأم، ضاربين عرض الحائط الآثار الكارثية على الجماعة ذاتها والتي تحظى بحضور في كل بلدان العالم، ومن بينها دول الخليج، لكنهم يصرون ،عدا استثناءات قليلة في صفوف تيارات منشقة، على أن الموت مع (الجماعة) رحمة.

مرسي جزء من الماضي ولا شك، لكن الجماعة يبدو أنها في الطريق لأن تكون كذلك؛ لأنها تعيش مرحلة إعادة تشكل، كما أن فكرة استيعابها في المرحلة السياسية المقبلة مرهون بقدرتها على القيام بمراجعة شاملة ونقدية للذات، والتأخر في هذه المراجعة الذاتية أدى إلى المطالبة بحل الجماعة بالقوة وحظر أنشطتها مرة أخرى، وبالتالي شطبها من الحياة السياسية. وهناك تخوف من أن يقود ذلك إلى دخول مصر في أتون العنف بسبب ارتداد الكوادر الحزبية الإخوانية إليه.

حجم الإخوان

- ربما كان أكثر سؤال يواجه الباحثين في التيارات الإسلامية، هو معرفة الحجم الحقيقي لحركة الإخوان المسلمين في مصر؟ وهو سؤال طرح كثيراً في مناسبات مختلفة، حيث كان الجميع مذهولاً من حجم رد فعل الجماعات الإسلامية في الشارع، وبالطبع لا أحد يمتلك الإجابة الحقيقية، والأرقام متباينة ما بين ٣ ملايين كما تقول بعض الدراسات الحديثة التي اعتمدت على أرقام مسربة من داخل الجماعة للمسجلين رسمياً، وما بين مبالغات الإخوان في أوقات الحشد من أمثال د.عبد الحميد الغزالي المستشار السياسي للمرشد الذي قال مرة إن الإخوان وصلوا إلى ١٥ مليوناً، ويشبه ذلك ما قاله يوسف ندا في لقاء أجرته معه قناة الجزيرة من أن الإخوان في العالم يتجاوزن المائة مليون شخص.
- بالطبع هناك تداخل لشعارات الإخوان الدينية مع أغلبية متدينة في المجتمعات العربية وغير مسيسة وكثير منها محتقن ضد السلطة بحكم الدعاية السياسية للمعارضة المضطهدة، ومن جهة ثانية أن تكنيك الجماعات الإسلامية عموماً هو التحالف في مواجهة الآخر المختلف على قاعدة (تكثير السواد) ومفهوم (النصرة) الشهير في الأدبيات الإسلاموية، إضافة إلى التحولات الكبيرة التي طالت التيارات السلفية التي أصبحت أكثر تسيساً وبالتالي تقاطعاً مع مشروع الإخوان، كما أن صعود التيارات السلفية حتى في البلدان ذات المنزع المتصوف كدول شمال أفريقيا جعلها أكثر تمثيلاً لأحزاب الإسلام السياسي.

مكابرة القيادات

الإخوان أكبر تنظيم هيكلي لفكرة الإسلام السياسي، والذي عاش تجربة الجماعة من الداخل يدرك مدى دقة الهرمية المقتبسة من التنظيمات الشيوعية والفاشية على مستوى النظرية وتربية الكوادر والأدوار والقدرة على إعادة الترتيب، ومن هنا إعادة الدخول في الحياة السياسية لن تكون عبر بوابة الاستقواء بالغرب؛ لأنه مرتبط بتكييف المسألة سياسياً في الذهنية الغربية بما يوافق مصالحه، وهو أمر يخطئ في فهمه كل الأطراف التي ترى أن أميركا تتبنى الإخوان والإخوان أنفسهم الذين يرون أن علاقتهم علاقة تحالف طويل الأمد باعتبارهم بديلاً معتدلاً للأنظمة الاستبدادية.

مكابرة قيادات الإخوان ستفتح النار في المنطقة ولو بعد حين، ذلك أن تأخر الجماعة في التسوية مع النظام السياسي الجديد وارتفاع منسوب التطرف للكوادر والأتباع سيجعلها تنفصل عن جسد الجماعة وتتجه نحو العنف، لكنها لن تحصل على مظلومية الثمانينيات أبداً؛ لأنها لم تعد البائع الوحيد في سوق الشعارات الدينية.

حنق الذات القومية

خرج الإخوان من المشهد السياسي في مصر، ويبدو أن تصدعات كبيرة ستطال بقية نسخ (الجماعة) في دول العالم العربي، لكن الحنق من تجربة إخوان الجماعة الأم في مصر من قبل شرائح كثيرة من المجتمع المصري المتدين وغير المسيس يزداد بشكل تصاعدي مخيف بحيث يتجاوز في قوة ردود أفعالهم موقف خصومهم السياسيين من الأحزاب والتيارات المدنية بمختلف تنوعاتها، فهذا الغضب السياسي هو عادة ما يسلط عليه الضوء في وسائل الإعلام، بينما الغضب الشعبي الذي لا مس (الذات) القومية في أعز ما تملكه وهو هذا الحب الجارف لمفهوم (مصر) كما يتجذر في الوجدان الشعبي البسيط عمقا وضخامة ويقترب من حدود الأسطرة والشوفينية، وربما حجم هذا الغضب من قبل عامة الناس (رسالة ما) توجب محاسبة النفس على طريقة (أنتم شهداء الله في أرضه).

فلم ينس الشارع المصري مقولة مرشد الجماعة السابق مهدي عاكف: (طز في مصر، وأبو مصر، واللي في مصر)، وهي المقولة التي طبقها مرسي خلال سنة حكمه.

الخاتمة

كشفت الأزمة الأخيرة التي عصفت بمصر عن عمق الإشكاليات في الفكر الإخواني، فخلال السنوات الأخيرة كان يتم تقديم الإخوان بوصفهم ممثلين للإعتدال الإسلامي وقبول الآخر ونبذ العنف والتكفير، ولكن عندما بدأت الأزمة وكانت أزمة سياسية في طبيعتها عاد الإخوان إلى مكوناتهم الأساسية، فكان خطابهم تكفيرياً ضد مخالفيهم السياسيين، وصوروا الأزمة على أنها صراع بين الإسلام والكفر، فكل من خرج عن فسطاط الإخوان فهو منتم إلى فسطاط الحرب على الإسلام. وكان أن عاد الإخوان إلى العنف ضد مؤسسات الدولة وضد معارضي الحركة من المفكرين والسياسيين ورجال الدين. لذا فهناك حالة عميقة من عدم الثقة بين المكونات السياسية المصرية وبين حركة الإخوان المسلمين، وستكون الأشهر القليلة القادمة حاسمة في مستقبل الحركة ليس فقط في مصر ولكن في جميع الدول العربية.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

ص.ب ٥١٠٤٩ الريـــــاض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ (١١ ٩٦٦+) تحويلة: ٦٧٦٤ فاكس: ٤١٦٢٢٨١ (١١ ٩٦٦+)
بريد إلكتروني: masarat@kfcris.com